مات محمد أنعم غالب وترك بصماته

إحدى اجتماعات مجلس كلية بلقيس بعدن في العام الدراسي 65/64، ويتوسطهم الأستاذ/ محمد أنعم غالب،والى يمنينه الأستاذ/ حسين الحبيشي عميد الكلية، وإلى يساره مشرفة قسم البنات.

الأستاذ/ محمد أنعم غالب الرابع من اليمين مع وفد الكويت الزائر لكية بلقيس بعدن في أثناء زيارة الوفد الكويتي الشقيق للكلية للعام الدراسي 66/65م

في وقت كان الناس يتأهبون لاستقبال عيد الأضحى المبارك لهذا العام 1429، وفي أثناء كان حجاج بيت الله الحرام يستعدون للمبيت في منى ، والوقوف بعرفة ، وفي زحمة الحياة فاجأنا الأستاذ الفاضل محمد أنعم غالب برحيل مفاجئ، فلم يشأ أن يشارك الناس في أفراح العيد، لأنه لم يكن في وضع يسمح له بالابتهاج والفرح، لما كان يعانيه من الآلام من جراء المرض الذي أقعده وأفقده الحركة، فآثر أن يغادر الحياة بصمت في أواخر أيام العشر المباركة من شهر ذي الحجة، فترك بموته فراغاً كبيراً في مجالات الحياة المختلفة ، وبالذات مجالات العلم والثقافة والأدب والاقتصاد والسياسة، والتربية والتعليم والإدارة، فقد كان فارس الميدان في هذه المجالات جميعها، وكان مرجعاً وحجة في هذه المجالات وغيرها.

د.علوي عبدالله طاهر

ومن يقف عند سيرته الذاتية فإنه سيجد شخصية فذة شقت حياتها بصعوبة ، وبذل ما في وسعه ليكون متعلماً في وقت كان الناس محرومين من التعليم، وسعى جاهداً لتبديد ظلام الجهل، والتخلف من ربوع اليمن، فهو من مواليد 1932 في محافظة تعز، وشاءت الظروف أن يتلقى تعليمه الأولى في الكتاتيب ثم في مدرسة بازرعة بعدن في الفترة ما بين 1950 – 1951م والتحق بعدها بالبعثة التعليمية في القاهرة ، ودرس في مدارس حلوان الثانوية ، حتى عام 1953م، وواصل دراسته الجامعية في مصر حتى حصل على ليسانس الحقوق عام 1956م – 1957م ، وفي أثناء وجوده في القاهرة عمل محرراً في صحيفة (صوت اليمن) التي أصدرها في القاهرة كل من محمد محمود الزبيري وأحمد محمد نعمان، وبدأ نجمه يبزغ كطالب متحمس للقضايا الوطنية اليمنية ، ويسهم بفاعلية في النشاطات الطلابية متضامناً مع حركة الأحرار اليمنيين التي اتخذت من القاهرة مقراً لها، لمقارعة نظام الإمامة المتخلف في صنعاء، والتصدي لمشاريع الاستعمار المحتل في عدن ، والرامية إلى تجزئة اليمن ، والإبقاء على الكيانات الهزيلة في المحميات الشرقية والغربية، فكان لابد من إبعاده عن مركز الحراك السياسي فابتعث إلى الولايات المتحدة الأمريكية للدراسة العليا ، فحصل على الماجستير في الاقتصاد من جامعة تكساس، وذلك عام 1960م فكان بذلك من أوائل المبعوثين إلى أمريكا وأوائل خريجي جامعاتها من اليمنيين، ولكنه عند عودته إلى الوطن اصطدم بالأوضاع الفاسدة في الشمال والقوانين الاستعمارية الجائرة في الجنوب ، والتي لاتسمح لأبناء الشمال بالعمل في الإدارات والمؤسسات الحكومية ، فكان مضطراً إلى الهجرة إلى المملكة العربية السعودية والعمل محرراً في جريدة (اليمامة) الصادرة في الرياض ، وذلك في الفترة الواقعة بين 1961 – 1962م ، وعاد بعدها إلى عدن يشغل منصب نائب عميد كلية بلقيس بعدن، في الفترة ما بين 1962 – 1963م وشكل مع عميد الكلية الأستاذ/ حسين الجيشي ثنائياً متميزاً بالتعاون والتعاضد، فكان أحدهما يخطط والآخر ينفذ، وشهدت كلية بلقيس في عهدهما عصراً ذهبياً، فرضت نفسها كمؤسسة تربوية رائدة ، لفتت إليها الأنظار ، وهو ما حدا بحكومة صنعاء لاختياره ليكون وزيراً للتربية والتعليم بعد مقتل الشهيد محمد محمود الزبيري ، الذي كان أول وزير للتربية والتعليم عقيب الثورة مباشرة، ولكن الأوضاع غير المستقرة وقتذاك في صنعاء حالت دون استمرار محمد أنعم غالب في وزارة التربية والتعليم ، فترك الوزارة وعاد إلى عدن ليشغل منصبه السابق نائب عميد كلية بلقيس ، وذلك عام 1964م وظل في هذا المنصب حتى عام 1968م ، واستطاع بتضامنه مع عميد الكلية أن يخططا لتكون الكلية في المستقبل كلية جامعية ، فأسسا معاً نظاماً تعليمياً متطوراً، وأتيا بمنهج دراسي متقدم يختلف عن منهج المدارس الحكومية في مدارس عدن، وتعاقدا مع مدرسين اكفياء ، وعملا على تأهيل المدرسين في الخدمة ، سواء في دورات داخلية أو دورات خارجية ، وتعاقدا مع الحكومة المصرية أولاً لتزويد الكلية بالكتب والمقررات الدراسية والوسائل التعليمية، ثم مع الحكومة العراقية بعدها، وقاما متضامنين بإقناع حكومتي مصر والعراق بتمكين خريجي الكلية لمواصلة دراساتهم في مدارسها وكلياتها الجامعية، وكان من جراء ذلك أن تمكن عدد كبير من الطلاب من مواصلة دراساتهم الجامعية والعالية، عاد بعضهم ليشغلوا مناصب رفيعة في الدولة والمجتمع.

ولما كانت الأوضاع السياسية في عدن قد شهدت صراعات على السلطة وتقلبات كثيرة، طالت عدداً من المفكرين وقادة الرأي في عدن ، أحس كلاهما بالخطر ، وشعرا بعدم جدوى بقائهما في عدن، خاصة بعد أن سيطرت الجبهة القومية على السلطة واشتداد الصراع في داخلها ، فتركا عدن واتجها إلى صنعاء، ولسان حالهما يقول : (لا يجتمع حكم المراهقين والحمى في مكان واحد).

وفي صنعاء شغل محمد أنعم غالب منصب رئيس المكتب الفني ، ثم رئيس المجلس الأعلى للتخطيط ، وذلك في الفترة الواقعة بين عامي 1968 و 1969م ، في حين شغل الجيشي منصب المستشار القانوني لرئيس الجمهورية ، أو ما كان يسمى حينذاك المجلس الجمهوري، كما شغل عدة وزارات هامة، ومناصب رفيعة في الدولة.

ولسنا هنا في صدد الحديث عن الأستاذ /حسين الجيشي أطال الله في عمره، الذي ورد ذكره عرضاً، وإنما يقتصر حديثنا عن المرحوم محمد أنعم غالب بمناسبة وفاته.

وكان محمد أنعم غالب قد شغل في صنعاء وزيراً لعدة وزارات هامة منها وزيراً للاقتصاد ، ووزيراً للإعلام ، ترك فيهما بصماته التي لاتزال تذكر الناس به، كما شغل منصب عميد المعهد القومي ويعتبر مؤسساً له ، والذي صار يعرف فيما بعد بمعهد العلوم الإدارية كما شغل منصب سفير اليمن في كوريا الجنوبية، ومستشار وزارة التعليم العالي .. وغيرها.

وكان من مؤسسي مدارس صنعاء الأهلية التي تأسست عام 1972م، وصار عضواً في هيئتها القيادية.

ويجدر بنا في هذا المقام الا ننسى دوره في مجال التأليف والترجمة، وكتابة الشعر، فهو مؤلف كتاب التخلف الاقتصادي والاجتماعي في اليمن، وكتاب عوائق التنمية ، بالإضافة إلى كتاب مترجم، وله ديوان من الشعر ، وإذا كان لابد من التعريف بشعره، فإننا سنكتفى هنا بعرض قصيدته الشهيرة (وغداً سنعود) والتي فيها معاناة المغترب اليمني، في أنحاء مختلفة من العالم كأحسن ما يكون التصوير ، ومن ذلك قوله:

قابلته .. في الشاطئ البعيد
عرفته من سحنته
ومضغه التنباك تحت شفته
وكنت في بداية الرحيل
فرحان .. انني خلفت من ورائي اليمن
لأشهد الحياة في العوالم الفساح
تموج بالزحام والصراع

قابلته في الشاطئ البعيد
منذ عشر من السنين
في مرفأ .. يمتد ميل
أحواضه تمتد في السفين
حدثني .. ولم أكن أعي أكثر ما يقول
وهو الذي قد طوف الأقطار
وذاق ماء كل نهر
وخمر كل كرم

قد عاش في كل المهن
ينقل الأثقال في رصيف
بالحبل والخطاف والعرق
وفي الثغور النائيات
يكسب القليل
ويقطع الأحجار في جبل
ليرفع القصور الشاهقات
في كل أرض
أو ينزل الأعماق في مناجم الشمال
في بلد يلفه الضباب والثلوج
ويستوي فيه المساء والصباح
ينزل الأعماق .. ينزع الوقود
من أجل أن يدب دفء او تسير قاطرة
أو يصارع الأمواج في البحار
يجوب كل ثغر
على سفينة دائمة التطواف
وكم يرى الجليد .. يقفل البحار في الشمال
بياضه الشفاف يخطف البصر
وفي المحيط ذلك العريض في وسط الدنيا
والشمس قرص نار !
مقره بجانب السخان ، يطلب المزيد من وقود
قطعة من اللهب
تسير في لهب
في مركز العالم كل شيء يستحيل نار
والفلك جمرة سوداء في جحم
(لا يرى له لهب)
لكم رأى ، وكم بنى ، وكم هدم !
وعاش تحت كل شمس
كل النجوم تعرفه
الموج والجليد يعرفه
والصخر والشجر
ونسمة الصباح والمساء
والبحر والقفار
وكل ريح
العالم الوسيع موطنه
لكنه غريب !
شارك في بناء كل دار
وعاش تحت كل شمس
وكل أرض تنكره
لأنه الغريب
يسير هاهنا .. مشرداً يبحث خطوه المديد
يردد الأغاني الذابلات
ويزرع الأمل
ويحصد الضياع !
كل الموانى الغارقات في الضياء
تحس حمله الثقيل
وتستحم في مياهها ألحانه
وكل روح حملت أشجانه
حتى الصدى رد عليه
شاركه أحزانه
كل المهن
يعرفها :
حمال ، أو قتاد ، أو شحاذ

وذات يوم نبذته باخرة
في مرفأ يغرقه الزحام
وليس فيه موضع لعامل جديد
العاطلون بالمئات
يقضون يومهم، ممددين في العراء
"يعصرون النسمات"
بأجنحة ...
مصنوعة من سعف النخيل
وكل شيء فيه نار
الجو نار، والغلا نار
حتى كؤوس الماء تباع بالنقود
وعاش مثل ساحر عجيب
يبيع آمالاً .. لليائسين
يخط في الترب السطور
ويكشف المحجب المستور
ويخلط الكلام
ببضع تمتمات
وآية الكرسي والنجاة
ويكتب التمائم المطلسمات
لعاشق مفارق، وغائب يعود

*
كل الموانئ تعرفه
كل البلاد جابها
كل البحار خاضها
بأي اسم؟
أبوه سماه "علي"
وحين صار في عداد الوارثين
اثبت اسمه "علي"
"في فتر الزكاة".
طارده الجباة
وباع نصف ثروته
ليدفع الزكاة
وأجرة التقدير والجباة والجنود
ورشوة الحاكم والأمير
وغادر الوطن
حكوا له أن البحار في البعيد، تقذف اللآلئ
وأن عالماً يمتد خلف دولة الإمام
أنهاره ، شطوطه ، ذهب
جباله المأس
عالم عجيب
يصنع الثياب والساعات
والخيوط والإبر
والطائرات
تلك التي تمر في السحاب
وفيه ينطق الحديد
ماضره لو غادر الوطن
وآخرون غادروه قبله
وهذه أخبارهم تعود
وطيها نقود
وقطع الكساء

وسار ...
في الطريق صادف الكثير مثله
وفي نفوسهم الحنين للرحيل
واجتاز بحر
على شراع
وألقت السفين حملها .. بشاطئ مهجور
هناك عاش بضعة من السنين
واسمه القديم صار ذكريات
ونقش اسمه الجديد في ورق
مكتوبة بخط أعجمي
وطوف البحار والقفار
كم بدل الأسماء
وبدل الأوراق
في جيبه منه الكثير
والاسم .. أي اسم
أي اسم .. لأيهم
من صنف ما يحمل من ورق

ومرة قد كان تاجراً يجول في الطرق
يبيع كل شيء
العطر والصابون والحرير
والكتب
لكنه كتاجر صغير
رأس ماله العرق
والحرب قامت منذ شهر
والغلا نار
تجارة التطواف .. لا توفر الرغيف
الحرب قامت منذ شهر
والمجتهدون يمرحون
ويشترون المتعة الأخيرة
الحرب لي عمل
أنا المحارب الشجاع
أجيد إطلاق الرصاص
رصاصتي ما أخطأت قط هدف
وسجل اسمه في دفتر المجندين
ولم يزل يذكر مآفي الحرب من أهوال
حاربت لا دفاعاً عن وطن
حاربت من أجل الرغيف
بجانب الفاشيست
وفي الليالي السود بين الدم واللهب
رأيت لي صحاب .. كانوا من اليمن
في الجانب المضاد ..
حاربتهم ، وحار بوني ، لا دفاعاً عن مثل
وكان لا يهم من يعيش أو يموت
ولا يهم قاهر ومنكسر

عمرت كل أرض
وموطني خراب
لكم أتوق أن أعود للوطن
لكم أتوق أن أدق فوق صخر بفأس
لكم أتوق أن أشم ريحة الحقول
لكم أتوق أن أرى عيد الحصاد
وأن أعيد الأغنيات
في موسم البذور والحصاد
لكم أتوق أن أنادي يا (علي)
..... والقصيدة طويلة